



خراب البيت

أ "رواية الحياة اللبنانية"، يقول الشاعر الذي اختارته "دار النهار" للترويج لـ "عين ورده"، العمل الجديد لجبور الدويهي. الشاعر صائب الى حد بعيد، شرط ان نفهم كلمة الحياة على انها صعود وانحطاط، بناء وهدم. لكن الشاعر، وإن اعطى الرواية حقها، فهو يبدو مجحفاً للروائي، إذ قد يوحي ان جل ما فعله ليس الا تورية طويلة، فيدفع القارئ الى مقارنة الكتاب بنية فك رموزها وايجاد مفاتيحها. الرموز وافرة في "عين ورده"، والتورية وجّهت بلا ريب قلم جبور الدويهي، الا ان العمل ليس "رواية مفاتيح"، حسب التعبير الشائع، بل رواية مكتملة، تزخر بشخصيات نحتها الخيال من اللحم الحي وربطت بين عوالمها وازمنتها، المتباعدة رغم وحدة المكان، كتابة ممسوكة وفي الآن نفسه متنوعة الايقاع. دليل جديد اذاً على احتفاظ الرواية اللبنانية بالزخم الذي بات يميّزها منذ بضع سنوات.

II شكّلت الكتابة الروائية احدى الظواهر الثقافية في لبنان ما بعد الحرب، ولعلها ابرزها على الاطلاق. فاذا لم تكن الرواية غائبة عن المشهد الادبي اللبناني في ما مضى، الا انها كانت تعيش الى حد بعيد في ظل الشعر، بما عرفه من نهضة، خصوصاً بدءاً بنهاية الخمسينات. وفي اي حال، ما شهدناه خلال الحرب وبعد انتهائها لم يكن ظهور روائي واحد او اثنين او حتى ثلاثة، بل جيل كامل من الروائيين يناهز عددهم العشرة، سواء أكانوا يقيمون في لبنان ام في اوروبا. والحديث عن جيل ليس مجرد سهولة لفظية، فباستثناء ربيع جابر ونجوى بركات، ينتمي هؤلاء الكتاب الى فئة عمرية واحدة، وقد تشاركوا في الاجواء الثقافية والسياسية التي طبعت شبابهم مطلع السبعينات من القرن الماضي.

ويزيد من الطابع الجماعي للظاهرة ان غالبيتهم انخرطت في وتيرة من الانتاج تتيح لها اصدار رواية جديدة كل سنتين او ثلاث، بما يشبه الاحتراف الادبي السائد في عالم النشر الاوروبي، وان يكن من دون الامتيازات المادية التي يفترض ان تلازم هذا الاحتراف. وقد اضافت حركة ترجمة الرواية العربية التي انطلقت في اوروبا في الثمانينات من ظهور الروائيين اللبنانيين، بعدما تُرجم الكثير منهم الى اكثر من لغة اوروبية، ولا سيما حنان الشيخ والياس خوري وحسن داوود ورشيد الضعيف وهدى بركات. لم يكن جبور الدويهي من اوائل الذين خاضوا هذه التجربة، مع انه ينتمي الى الفئة العمرية نفسها.

ورغم ترجمة احدى دور النشر الجامعية في فرنسا "اعتدال الخريف" الى الفرنسية، وكذلك ترجمتها في الولايات المتحدة، الا انه لا يزال يفتقر الى الاعتراف الذي منحه لزملائه ترجمة اعمالهم في دور نشر ادبية مرموقة. لكن هذا لم يمنعه من ان يستمر بتؤدة في بلورة تجربة كتابية متماسكة وأخذة في التوسع. فبعد "اعتدال الخريف"، التي كرّست طموحه الروائي منذ التجربة الاولى (اذا استثنينا تجربته القصصية في "الموت بين الاهل نعاس")، جاءت "رياً النهر" لتؤكد قدرة الروائي على بناء شخصيات معقدة والتحكم بابقاع الحكمة، وان تكن مستوحاة من الحياة الحقيقية (في هذه الحال من سيرة الفنان الراحل صليباً الدويهي).



||| منذ اللحظة الاولى يبدو طموح جبور الدويهي "عين ورده" اكبر مما في "ريّا النهر". ليس لأنه بارح هذه المرة بيئة شمال لبنان التي تعود على تصويرها، ويمّم نحو بيروت، متوقفاً في احدى ضواحيها الجبلية، بل لأنه اختار ان ينفخ في كتابته نَفْساً تاريخياً، من دون ان تكون استعادة التاريخ عملية سطحية تلتصق اعتباطاً بالحبكة. فالتحقيق التاريخي يلتحم عنده مع التحقيق البوليسي ليملاً "عين ورده" بتفاصيل الحياة الحقيقية والاحداث الكبيرة والصغيرة. والحال ان البيت الذي يروي الدويهي تداعيه يحتوي على "عجقة" بشر. صحيح انه بات شبه مهجور في مرحلة ما بعد الحرب، اي في اللحظة التي يبدأ الكاتب باستكشافه. لم يبق فيه من آل الباز الذين يملكونه الا رضا، وقد اكتفى بغرفة محكمة الاغلاق دون غيرها، وعائلة صغيرة من "العرب الرحّل" اقامت في القبو مقابل خدمات التنظيف والطبخ ل"الخوaja رضا" والحراسة (الفاشلة).

لكن الرواية تستعيد الواحد بعد الآخر كل من سكنه من آل الباز، هذه العائلة المرموقة التي عاشت ما بدا لها العصر الذهبي للبنان وبلغت من الواجهة ما دفع بأحد افرادها الى السعي للنيابة في عهد كميل شمعون، من دون ان تنسى فخذاً من آل المانع، استقدمهم المرشح الفاشل طمعاً في اصوات عشيرتهم وبقوا في القبو وكبروا حتى ضاق بهم فاخترتوا بالقرعة احد ابنائهم ليرابط فيه مع زوجته وولديه. وكمن يتصفح البوماً للصور، يستعيد الدويهي سير الحياة المتشابكة، بأشائها البائدة ومشاعرها الراسخة، فيعيد بناء البيت فيما يبحث عن اسباب الانحلال التي تضربه وتضرب اصحاب الملك معه.

لكن الصور ليست في ألبوم عادي مرتّب بعناية في مكتبة انيقة، هي بقايا صور تبعثرت على الارض بعد "الكارثة" ولملمها عابر سبيل فضولي ما لبث ان وقع في سحرها فراح يتمعن فيها لمعرفة ما الذي حصل ولماذا، ومنها قفز الى صور اخرى لم يحفظها سوى ذهن رضا المشوش، حيث اختلطت المشاحنات العائلية الصغيرة بوسواس الحياة. ما الذي حصل؟ ذهن رضا الذي انغلق امام شاشة الكمبيوتر المخصص للعب الشطرنج وذكريات الحب المتأخر والجنس المستحيل، ذهن رضا هو مسرح الكارثة، يصدمه اجتياح المرأة البدوية الغربية لتوازنات البيت المهجور.

منذ البداية، لا يخفي الدويهي ان مصيبة حصلت، وأنها اتت من قريبة آل المانع الهاربة من مشروع "جريمة شرف" الى مأوى هذا البيت العاجز حتى عن ايواء اهله. المصيبة في الحقيقة صغيرة بالنسبة الى بيت صمد امام احوال الحرب او بالنسبة الى مصير "وقف ذري" سنُنقل ملكيته الى طائفة اخرى لانه سيؤول الى ابن الشقيقة التي هربت لتتزوج رجلاً من غير بيتها فانجبت منه الوريث الوحيد لآل الباز. لكن المصيبة، على صغرها، هي الاعلان النهائي عن انحطاط البيت، يشير اليها الدويهي مراراً في تصفحه الالبوم العائلي وكأنها النتيجة الحتمية لسلوك اهله، قبل ان يسكبها في تسلسل احداث هزلي - اباحي يبدو خارجاً من احدى روائع السينما الايطالية الكوميديّة. هنا ربما تبلغ التورية معناها الاقصى.

فاذا كانت "عين ورده" رواية الحياة اللبنانية، فليس كما قد يبدو في قراءة سطحية لانها قصة استيطان نفر من "العرب" جاؤوا من بادية الشام في تغريبة حملت عند الدويهي طابعاً سحرياً انسحب على اسلوبه، خصوصاً ان آل المانع ليسوا الا آخر الوافدين، قبلهم جاء اولاد الاسكندرية، اصدقاء العائلة "العائدون"، وقبل هؤلاء اتى آل الباز انفسهم من جزيرة العرب. لا، اذا كان من تورية، فهي تورية المضحك المبكي الذي يغرق قطعة من "الحياة اللبنانية".

سمير قصير



Id-Reference	02-Pr-000747	
Media	(Support)	HC
Title		خراب البيت
Subtitle		
Section		مرور الكلام
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٢/٣/١٨ 18/3/2002
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	جبور.دويهي - ربيع.جابر - نجوى.بركات - صليبا.دويهي - اسامة.بن.لادن
	Locations	لبنان - اوروبا - فرنسا - ولايات.متحدة - فلسطين
	Dates	١٩٤٨
	Themes	لبنان - رواية.عين.وردة - آل.باز - جبور.دويهي
Subject		